اثر النظام فى حياة الأمم

من أهم مايكفل للأفراد رقيا وللشعوب نهوضا حب النظام واحترامه ، فهو الوسيلة الأولى إلى التوجيه القويم للأمة عامة وللأسرة خاصة ، والدعامة التى ترتكز عليها جهود الأفراد ، وتنتظم بانتظامها معيشتهم وأحوالهم ، وتستقيم شؤونهم ، وتسمو أخلاقهم .. وشتان بين شعب محب للنظام ، تسير شؤون أفراده على أساس منظم ، ويقدسون النظام تقديسهم للقانون ، وبين شعب فوضوى لايخضع لنظام ، ولا يعرف كيف ينسق جهوده تنسيقا يضاعف من ثمراتها ويعيش أفراده على نحو لايكفل لهم رقيا ولا نهوضا .

نعم ... شتان بين الشعبين ... إذ التفاوت بينهما بعيد ، والبون شاسع ، والتناقض واضح جلىّ ، فلا عجب إذا بلغ الأول ذروة الرقى ، وتبوأ المكانة اللائقة به ، وتخلف الثانى عن إدراكه لعجزه عن النهوض وافتقاره الى وسائله ومقوماته .

والنظام يجب أن يبدأ تعليمه للناشئ منذ نعومة أظفاره ، لتتطبع به نفسه ، فيشب محبا للنظام ، ويسير فى حياته سيرا منظما بحكم التعود ، وبذلك يصبح النظام غريزة من غرائزه ، وطبعا من طباعه .

والبيئة التى ينشأ فيها الطفل ، أعنى البيت ، هى المدرسة الأولى التى يتلقى فيها مبادئ النظام ودروسه فى ضوء مايراه من نظم المعيشة الداخلية ، فمن واجب الوالدين أن يكونا القدوة الطيبة للأبناء فى النظام والترتيب فيعودوا الطفل النظام فى المأكل والملبس وفى كل عمل يؤديه ... فالنظام فى المأكل معناه تناول الطعام فى أوقات معينة ومراعاة القواعد الصحية التى لسنا فى حاجة إلى سردها ، والنظام فى الملبس معناه تعويد الطفل ترتيب ملابسه بعد خلعها وقبل ارتدائها ، والنظام فى كل عمل يؤديه بهذه الروح التى تملى عليه مراعاة النظام فى كل شىء .

هذا فى البيت ، أما فى المدرسة فمن ألزم الدروس للنشء "دروس النظام" ، فهى الأساس القويم للتربية والتوجيه ، ومفتاح طريق النجاح فى الحياة ، والوسيلة الى تهذيب النفوس وتقويم الأخلاق .

ونحن — مع الأسف — لانعنى فى بيوتنا بتعليم الأبناء دروس النظام ، فيجهل الطفل قواعده ، تجد ملابسه مبعثرة هنا وهناك ، يقضى معظم الوقت فى البحث عنها عند ذهابه فى الصباح الى المدرسة ، ويعود من مدرسته فيبعثرها دون تنسيق ولا نظام ... وتجد كتبه وأدواته مبعثرة فى كل مكان لايستطيع أن يحصل عليها إلا بعد مشقة وعناء .

وقطره فى المدرسة مثال الفوضى ، ووقته غير موزع توزيعا منظما بين الاستذكار والرياضة واللعب ، فاذا شب الطفل فوضويا لايعرف معنى النظام ، فلا لوم نسوقه اليه ، انما نلوم أبويه ومربيه .

ومن مظاهر إهمالنا مراعاة النظام فى شؤوننا الحيوية ما نشاهده دائما من تزاحم أمام منافذ دور السينما والملاهى ، ومكاتب التموين ، ومحطات السكك الحديدية ، والعيادات الطبية المجانية ، ومكاتب صندوق التوفير ، والمصالح التى يغشاها الجمهور لقضاء مصالحه .

تتمثل الفوضى فى هذه الجموع المتراصة المتدفقة . الكل يبغى الوصول الى النافذة بأى ثمن ولايهمه إلا قضاء مصلحته ... يتدافعون ويتزاحمون بالمناكب ، لايراعى القوى حق الضعيف وقد يكون بينهم ضعيف لايقوى على تحمل التدافع ، فلا مشفق ولا راحم . بل قد تكون بينهم سيدة تحمل رضيعا ، فلا يأبهون بشىء ، ويعلو الصياح من كل جانب ، وقد يشتبك بعض المتزاحمين اشتباكا لا تحمد عقباه . ولو أنهم نظموا صفوفهم ، وخضعوا للنظام ، لقضى كل منهم مصلحته فى وقت قصير دون جهد أو عناء .

بينما نجد أبناء الأمم الغربية يحترمون النظام احتراما يبلغ منزلة التقديس ، فأمام دور السينما تجد الصفوف متراصة فى ترتيب ونظام ، فاذا ما أقبل شخص أخذ مكانه خلف من سبقه ، لا يتعدى واحد منهم الآخر ولو كان أرفع منه مركزا ، فالضباط مثلا لا يحاولون تعدى دن أمامهم من الجند لأن الكل يحترم النظام ، فلا تسمع ضجة ولا صياحا ، ويعزى ذلك الى تربيتهم الأولى فقد تعلموا النظام وتعودوه منذ طفولتهم ، فأصبح غريزة من غرائزهم .

ولا أستطيع أن أحصر كل المظاهر التى تدل على بغضنا للنظام ، إنما أسوق أمثلة قليلة منها :

عنى قلم المرور بإرشاد المارة الى السير على الأفاريز منعا لحوادث الاصطدام ، وحدد خطوط سير المارة بعلامات بيضاء رسمها فى الطرقات ، ورغم ذلك لا يعنى المارة باتباع هذه التعليمات ؛ فتراهم يسيرون فى عرض الطريق مما يعوق سير السيارات و يسبب حوادث التصادم .

وأعدت فى الطريق سلات ليلقى فيها المارة بالأوراق المهملة ، ورغم ذلك نرى هذه السلات فارغة والأوراق مبعثرة فى الطريق على مقربة منها .

ونشاهد فى الحفلات العامة والخاصة مظاهر عدم النظام فى الدخول اليها والخروج منها ، كما نرى فريقا آخر لا يدخل دور السينما الا بعد بدء الحفلة وقد أخذ النظارة أماكنهم ، مما يسبب الجلبة والضوضاء .

ويتناول الموظف أو العامل راتبه أو أجره ، فلا يتبع فى انفاقه نظاما محكما بل ينفق فى غير تدبر فتضطرب ميزانيته ويضطر الى الاستدانة ..

ومعظم دور العمل عندنا والمحال العامة تسير على غير نظام فى عملها مما يعرقل حركة العمل فيجار العمال بالشكوى و يضيق صاحب العمل بعمله والسر هو عدم مراعاة النظام فى ادارته .

ولا يتبع معظمنا نظاما دقيقا فى توزيع وقته ليستطيع أن يجمع بين العمل ووسائل التسلية ، فينفق وقته عبثا دون جدوى ، وفى استطاعته أن يجمع بين العمل والتسلية إذا أحسن تنظيم وقته .

ولا يتبع الكثيرون نظاما صحيا فى مأكلهم وتحديد موعد الوجبات ، فيتعرضون لمختلف العلل والأمراض ، و يصابون بالتخمة التى تقعدهم عن العمل والسعى .

هذه صورة سريعة أعرضها لأصور مبلغ تهاوننا فى اتباع النظام فى حياتنا وأعمالنا .

ومن ذلك نرى أن النظام خير أساس تقوم عليه دعائم الشعوب ، وبقدر ما يحرص الشعب على تمسكه بالنظام واحترامه بقدر ما يبلغ من شأو وعزة واحترام فى نظر غيره من الشعوب .

فليلقن الآباء والأمهات أبناءهم و بناتهم دروس النظام العملى فى حياتهم البيتية ، ليتعودوا النظام و يعشقوه ، فيغدو غريزة فى نفوسهم .

وليلقن المربون تلاميذهم وتلميذاتهم دروس النظام فهى ألزم الدروس للنشء ، وهى الوسيلة الى توجيههم نحو الحياة الصحيحة المنظمة...

عيسى متولى
ببنك مصر